أخلاق الواجب في نقدية كانط :

أفضل طريقة لفهم أية فلسفة، هي وضعها في إطارها التاريخي و وفي مسارها وموقعها ضمن الفلسفات المعاصرة لها .

تعتبر الأخلاق محور اهتمام كانط الذي كانت فلسفته تتمحور في البداية حول: المعرفة و الأخلاق ، خاصة في ق 18 الذي عرف جدلا بين العقليين (ديكارت ، سبينوزا ، ليبنتز) والتجريبيين (بيكون ، لوك ، هيوم)

هذا الصراع الذي كان محكا فكريا بالنسبة لكانط حتى يختار مسلكا فكريا نقديا تتأسس عليه فلسفته في المعرفة والأخلاق والسياسة والدين وغيرها من المباحث الفلسفية ولهذا كانت المؤلفات النقدية "نقد العقل الخالص ، نقد العقل العملي ، نقد ملكة الحكم ، ومؤلفات أخرى حول ميتافيزيقا الأخلاق ، والدين في حدود مجرد العقل ، ،،، الخ .

نقتصر هنا على الإشارة إلى فلسفة المعرفة باختصار: حيث تناولت حقيقة المعرفة الإنسانية. من خلال جملة من الأسئلة الكبرى : مدى قدرة العقل على إدراك حقيقة الكون و الطبيعة الإنسانية ؟ و آليات المعرفة ؟ ، وحدود العقل ؟.

يرى أن العقل ملكة في المعرفة تتكون من ثلاث ملكات هي: الحساسية و الفهم و العقل الخالص.

الحساسية :مسؤولة عن تنظيم الانطباعات الحسية المتفرقة التي تقدمها التجربة الحسية على شكل مدركات حسية. و تؤدي الحساسية وظيفتها بواسطة مقولتين قبليتين هما مقولتا الزمان و المكان .

الفهم : تحول المدركات(الحدوس) الحسية إلى معرفة و ذلك بواسطة " مقولات قبلية تنصب فيها معطيات التجربة الحسية فتتحول إلى معرفة، و من أشهر تلك المقولات،مقولة السببية "

العقل الخالص : و هو المرتبة العليا لملكة المعرفة و مهمته تنظيم المدركات العقلية و توحيدها و تأطيرها بواسطة المبادئ و المفاهيم القبلية العليا و تحويلها إلى معرفة يقينية ضرورية كلية، أي إلى حقائق.

و هكذا يكون العقل فاعلاً، موحداً، مُنظماً، يضفي النظام و المعقولية على الواقع التجريبي و العالم كله ولكنه عاجز عن إنتاج المعرفة وحدها من ذاته لأنه مجرد صورة فارغة دون المحتوى التجريبي ، فالعقل لا يملك القدرة المطلقة في المعرفة .

رسم كانط حدود الاستعمال المشروع لملكة العقل، و لما يمكن أن تبلغه المعرفة الإنسانية بواسطة العقل. فمادام التنظيم و التوحيد الذي يقوم به العقل رهناً بتوفير معطيات حسية، فمن الخطأ الفلسفي الجسيم التعويل عليه في معرفة ما يتجاوز التجربة (الميتافيزيقا). و كلما "

تجاوز العقل عالم الظواهر ليبحث في موضوعات ميتافيزيقية (الله ، العالم ، النفس) فإنه ينتهي حتما في تناقض .لأن كانط " يميز في الأشياء بين الظاهر phénomène وبين النومين noumène الشيء في ذاته .إننا لا نعرف من الأشياء إلا الظواهر أما النومينات فذلك ما نجهله.

فلسفة الأخلاق :

الشق الأخلاقي هناك ترابط وثيق بين المعرفة والأخلاق حيث غالبا ما تخضع الأخلاق للنقد المعرفي. يتمحور الشق الأخلاقي حول الأسئلة الآتية: ماذا يجب أن أعمل؟ أو ما الذي ينبغي أن أفعله؟ و ذلك في "نقد العقل العملي".. يعني النقد هنا استخراج المبادئ العقلية المشتركة في تكوين أحكامنا العلمية التي فيها شمول وضرورة.

فإذا طبقنا هذه القاعدة في مجال الأخلاق، نجد أن مهمة الفيلسوف النقدي، ليست تناول أحكام الناس الأخلاقية تأييدا أو تفنيدا، فإن قال الناس مثلاً "إن طاعة الآباء واجبة على الأبناء "، فليست مهمة الفيلسوف الأخلاقي النقدي هي أن يقول: نعم أصاب الناس في حكمهم هذا، أو كلا فقد أخطأ الناس فيه، بل مهمته منحصرة في تعقب هذا "الوجوب" إلى مصادره الأولية، من أين استمد الناس فكرة الوجوب هذه؟ إنهم لم يجيدوها فيما خبروه بحواسهم من تجارب، لأنهم في هذه الخبرة رأوا فلاناً و فلاناً يطيعون آبائهم و لم يروا "وجوباً"، فمن أين جاءهم حين قالوا حكمهم الأخلاقي " يجب على الأبناء طاعة الآباء"، و لو كان التعميم هنا من قبيل الإحصاء لما كان إشكال لكنه التعميم بمعناه الضروري الذي يشمل أفراداً لم يقعوا في حدود تجاربنا

من هنا ترى الأخلاق عند كانط مهمتها البحث عن المبادئ الأولية القبلية التي تبرر أحكامنا الأخلاقية، أو بعبارة أخرى هي البحث عن المبدأ الذي يصدر عنه إلزامنا بأداء الواجب لذاته، كلما قلنا " يجب فعل كذا و كذا". فما الذي أوجب الواجب؟، لماذا نلتزم بفعل ما نقول عنه إنه واجب؟ و هذا السؤال هو بعينه السؤال : ما هي المبادئ القبلية الكامنة في أحكامنا الأخلاقية؟. يؤكد كانط على أن كل شيء في الوجود يسير وفق قوانين محددة تتناسق مع طبيعة الأشياء، و بما أن طبيعة الإنسان هي العقل لذلك فإن القوانين التي يجب أن يسير عليها الإنسان في حياته و أخلاقه يجب أن تقوم على مبادئ العقل و بذلك يصبح القانون الأخلاقي هو القانون الفعلي عند الإنسان.

والمبدأ الذي تقوم عليه الأخلاق الكانطية مخالف للمبادئ التي قامت عليها المذاهب الأخلاقية القديمة أو الحديثة. فالمذاهب اليونانية غائية تحكم على العقل الخلقي بالاستناد إلى آثاره و نتائجه، و بمقدار ما يمكننا من الوصول إلى غاية معينة هي السعادة حيناً و اللذة حيناً آخر. و

لا شك أنها بذلك قد أغفلت جانباً هاماً هو عنصر "الإلزام"، حتى أننا لا نكاد نعثر على لفظ يترجم معنى الإلزام في كل من اللغتين اليونانية و اللاتينية.

أما المذاهب الحديثة . في الفلسفة الحديثة . فقد اتجهت فلسفة الأخلاق في طريقين مختلفين، " فاعتقد النفعيون أن الخير مجرد شيء محسوس ملموس ، و من ثم راحوا يقيسون نتائج الأفعال بمعيار تجريبي، أطلقوا عليه "حساب اللذات" أما الطريق الثاني، فهو يرفض أن تكون الأخلاق رضاً بما لدينا من إحساس بالإلزام، و أعلى صورة من صور الأخلاق الإلزامية هي تلك التي نلتقي بها عند كانط .

لقد استبعد كانط في مذهبه الأخلاقي مذهب السعادة الشخصية، لأنه يرد الخير إلى اللذة و المنفعة، كما أنه يعجز عن استخراج قانون كلي ضروري من أنواع الحساسية الجزئية المتغيرة. " و لم يوافق كانط أيضاً على مذهب العاطفة الأخلاقية مع اعترافه بالفضيلة أولاً و بالذات. "

لهذا فالفعل الأخلاقي عند كانط هو الفعل القائم على" الواجب"، و الواجب كما يعرفه كانط هو: " ضرورة أداء الفعل احتراما للقانون" . و بموجب هذا القانون الأخلاقي المفطور في نفوسنا يكون العمل فاضلاً و صالحاً، لا بسبب ما ينتج عن هذا العمل من نتائج حسنة و طيبة، أو بما فيه من حكمة ، و لكن لأن هذا العمل قد أُديّ وفقا لهذا الشعور الداخلي بالواجب، هذا القانون الداخلي لم يأت عن طريق تجاربنا الشخصية و لكنه فطري طبيعي فينا.

و الخير الوحيد في " هذا العالم هو " الإرادة الخيرة " التي تتبع القانون الأخلاقي، بغض النظر عما يعود علينا من كسب أو خسارة. إذ ليس المهم هو السعادة و إنما هو الواجب .يقول كانط :" من بين الأمور التي يمكن تصورها في هذا العالم أو خارجه لا يوجد شيء يمكن عده خيراً على الإطلاق و دون قيد ، اللهم شيء واحد هو الإرادة"

فالواجب لا يستند إلى العاطفة أو الوجدان و لا إلى الميول أو الرغبات مهما كانت نبيلة و سامية. كما أنه لا يقوم على تجربة خارجية كانت أم باطنية، بل يقوم أولاً و بالذات على احترام القانون.

و من هنا يتصف الواجب الأخلاقي بـ :

1. الصورية : صوري محض، القانون العملي أو الأخلاقي (المضمون) من كل اعتبارات مادية ، بحيث يقتصر على مجرد شكل للتشريع الكلي .

2. النزاهة : الواجب نزيه عن الأعراض، فهو لا يسعى إلى السعادة .

3. الأخلاقية : الواجب " لا يمكن رده إلى أي شيء آخر، ذلك أن الواجب لا يؤسسه شيء بل هو الذي يؤسس كل فعل أخلاقي

و من فكرة الواجب هذه يستنبط كانط ما يسميه مصادرات العقل العملي. إنها مصادرات أو فروض لأنها لا تقبل البرهنة العقلية كما قرر ذلك في "نقد العقل الخالص"، و إنما هي موضوعات للاعتقاد فحسب، أي للإيمان غير العقلي، و هذه المصادرات ثلاث:

1. الحرية: و تنبع من ضرورة إطاعة الواجب، ذلك أن "الإلزام " يفترض أن يكون المرء خيراً، و لا معنى" للإلزام الخلقي" بدون افتراض الحرية في الإنسان. فالإلزام الخلقي ليس بالمعنى الحتمي الذي نراه في القانون الطبيعي فهذا الإلزام ينطوي على المسؤولية الأخلاقية، ونحن من حيث كوننا كائنات أخلاقية أحرار. فالحرية وثيقة الصلة بالأخلاق.

2. خلود النفس: و مصدره أن الإخلاص التام للواجب لا يمكن تحقيقه في هذه الدنيا، و لهذا فنحن نميل إلى الاعتقاد في إمكان تزايد الكمال إلى غير نهاية، و هو أمر لا يتصور إلا بافتراض أن النفس خالدة .

3. وجود الله: و" الاعتقاد بوجود الله يصدر من تأكيدنا بأن السعادة يجب أن تصحب الفضيلة، و بأن السعادة مصاحبة للأخلاق، و أن النعيم يتوج التزام الواجب.[2]"

يرى كانط أنه لو كان للإنسان عقلا محضاً لاتجه بطبيعته نحو الخير لتحقيق التطابق بين عقله و إرادته، و لكنه مزيج من الحس و العقل فإنه يتصور الخير و يرتكب الشر، معنى ذلك أن الإرادة البشرية خاضعة لدوافع حسية متعارضة مع العقل، فمن هنا كانت حاجة الإرادة إلى أوامر ملزمة تكرهها على أداء ما اعتبره العقل خيراً حتى تحقق التصرفات وفقاً للقانون الأخلاقي. و حين يتحدث كانط عن الأوامر فإنه يعني أن الأخلاق تضعنا في مستوى يعلو مرتبة الطبيعة، و هو يسمي قوانين العقل باسم " الأوامر ."

يفرق كانط بين نوعين من الأوامر، أوامر شرطية مقيدة و أوامر قطعية مطلقة، فالأوامر الشرطية هي تلك التي تكون مشروطة بشروط معينة، و هي لهذا تبدأ عادة بأداة شرط "إذا" مثلاً "إذا أردت أن تحيى سعيداً فكن صالحاً" أو "إذا أردت أن تكسب ثقة الناس فتحرى الصدق دائماً"، و هذه الأوامر . كما يرى كانط . هي مبدأ للسلوك يقبله الناس لا لجدارته أو استحقاقه، بل لأنه يُمكنهم من الحصول على غاية معينة يرغبون فيها، يقول كانط :" و الأوامر الشرطية تمثل الضرورة العملية لفعل ممكن معتبر كوسيلة إلى شيء آخر يرغبه الإنسان(أو على الأقل من الممكن أن يرغب فيه "(أما النوع الثاني من الأوامر فهي الأوامر القطعية المطلقة، فهي غير مقيدة بأي شرط لأن ما تلزمنا به إنما هو أمر ضروري في ذاته بصرف النظر عن غاياته أو نتائجه كأن يقال "كن خيّراً" أو "تحرّى الصدق دائماً"، و هنا لا يكون فعل الخير أو تحري الصدق وسيلة للحصول على أمر ما كائناً ما كان، بل يكون مجرد تصرف نزيه " نلتزم فيه بأصول

الخير بإزاء قانون أخلاقي عام لا يُطاع لما يترتب عليه من منافع، بل لأنه هو القانون"إن الأمر المطلق يقوم على الربط المباشر بين الإرادة و بين القانون دون شرط و لا مقدمات و لا نتائج و هو الذي يطلب منا أن نفعل الواجب من أجل الواجب دون أن تكون هناك دوافع أخرى.

إن الفارق بين الأمر الشرطي و الأمر المطلق، أن الفعل في الأول لا يكون خيّراً إلا باعتباره وسيلة للحصول على شيء ما، في حين أن الفعل في الثاني منهما متصور باعتباره خيراً في ذاته، فنجد أن الأوامر القطعية المطلقة المتعلقة بالإخلاص هي في صميمها أوامر كلية أولية سابقة على كل تجربة .

لهذا يقرر كانط أن الأمر المطلق وحده هو الذي يتمتع بصفة القانون الأخلاقي.

إن الواجب . كما عرفنا. هو الفعل احتراما للقانون، و لعل الصفة الأساسية الرئيسية التي يتميز بها القانون هي صفة "الكلية" أو العمومية. و لهذا نجد أن كانط وضع صيغاً رئيسية للواجب أو قواعد الفعل الأخلاقي التي يجب على الإنسان أن يلتزم بها و يسترشد بها حتى يضمن أن تأتي أفعاله متفقة مع الأخلاق و هي :

أولاً:"اعمل بحيث يكون عملك وفقا لقاعدة تريد أن تكون قانوناً عاماً للناس". و هذه قاعدة أساسية اعتبرها كانط بمثابة الأساس لبقية القواعد. و هي تعني أن معيار الفعل الخلقي هو إمكان تعميمه دون أن نقع في تناقض. أما إذا أدى التعميم لهذا الفعل إلى لون من التناقض كان الفعل متعارضاً مع القانون الخلقي.

ثانياً:"اعمل دائما بحيث تعامل الإنسانية في شخصك و في أشخاص الآخرين كغاية في ذاتها لا مجرد وسيلة و معنى ذلك أن كانط يجعل من الإنسانية غاية يجب أن يراعيها المرء في سلوكه .

ثالثاً:" اعمل بحيث تكون إرادتك هي نفسها مشروع قانون" و هذه القاعدة هي بمثابة جمع بين القاعدتين السالفتين، لأنها تنص على ضرورة خضوع الإنسان للقانون باعتباره موجوداً عاقلاً. و تكون الإرادة هي مصدر القانون.

في ختام هذه المحاولة التي تبرز و لو بإيجاز بعض جوانب الفلسفة الخلقية الكانطية، نفضل أن ننهيها بعبارته الشهيرة التي أنهى بها كتابه "نقد العقل العملي"، و التي تكشف مدى أهمية الأخلاق عند كانط وهي :"السماء المرصعة بالنجوم من فوقي و القانون الأخلاقي في باطن نفسي."

و مما سبق فإن الأخلاق الكانطية، ذات طابع ثوري في تاريخ الاخلاق الفلسفية

فلسفة الأخلاق الكانطية تقول بأن شعور الإنسان بواجبه صادر من أخلاق فطرية و أن الأخلاق عامة و فطرية و مطلقة و كلية و عمومية .